كفاحى الثقافى واختباراتى الصحفية

الثقافة إما أن تكون راكدة وإما مكافحة . وهى تركد حين تعالج موضوعات لا تثير المناقشة . وقد يرجع هذا إلى أن المجتمع نفسه مستقر يعيش فى بيئة زراعية مثلا ، أو أن حق الحكم منفصل منه إذ يتولى شؤونه مستعمرون مثلا . وقد بقينا نحن على هذه الحال نحو أربعين سنة فيما بين ١٨٨٢ و ١٩٢٢ حين تقررت لنا حقوق بالدستور كان مجتمعنا فيها منفصلا من الإدارة الحكومية . وكان المتولون من الإنجليز الذين لا تجدى المناقشة الصحفية معهم عن موضوع تعليمى أو صحى أو اقتصادى . وأذكر أن المرحوم عوض واصف حين أنشأ مجلة «المحيط» فى ١٩٠٣ قال فى العدد الأول إن مجلته ستعالج الشؤون السياسية والحكومية . فردت عليه «المقتطف» بأنه ليست هناك جدوى ؛ لأن المتولين لهذه الشئون إنجليز لا يقرأون العربية .

ولكن مجتمعنا أثار المناقشة وجعل الثقافة الدينية ، عن طريق محمد عبده ، ثم الثقافة الاجتماعية ، عن طريق قاسم أمين ، موضوعا للمناقشة الحية . وكانت حالنا فى تلك السنين أشبه بحال روسيا أيام القيصر ؛ فقد كان المفكرون الروس ممنوعين من نقد السياسة ، فاتجهوا إلى الأدب . وكان علينا فى مصر حظر عام بشأن السياسة وانتقاد الحكومة ، فاتجه النقد نحو المجتمع .

وفى أيامى الأولى ، فى بداية وجدانى الأدبى ، وجدت مجلات «المقتطف» و «الهلال» و «الجامعة» ، من المحركات الذهنية ، بل أكسبتنى هذه المجلات توجيها تجديديا فى العلم والأدب . وكنت قانعاً بهذه الثقافة . ولولا حادثة دنشواى لما التفتّ إلى السياسة أدرس أصولها وأعنى بتفاصيلها فى السنين العشر الأولى من هذا القرن .

وكانت نظرية التطور التى فهمت مغزاها من «المقتطف» البذرة الخصبة فى ثقافتى . فقد أكسبتنى معرفة وأسلوباً ، وعينت لى أصدقائى وخصومى من

المؤلفين والمفكرين، وغرست فى مزاج الكفاح لأنها تصدت للعقائد والتقاليد. وقد تشعع الكفاح من هذه البؤرة إلى موضوعات أخرى؛ ولذلك لم أسعد قط بالبرج العاجى. كما أن مغزاها الخطير فى التفكير العلمى والاجتماعى جعلنى دائم الشك كبير الاستطلاع والمساءلة، وتغيرت الأوزان والقيم عندى، وأخذت بقيم وأوزان جديدة ترى على فجاجتها فى «مقدمة السبرمان».

فى هذه الرسالة أجدنى أقول بالاشتراكية واليوجنية والتطور وتنظيم الدولة والمجتمع لا يجاد السبرمان أى الانسان الأعلى الذى نكون نحن منه بمكان الغوريلا أو الشمبنزى منا. وقد كان التفكير عندى فى هذه الشؤون أقرب الأشياء إلى مايمكن وصفه بأنه «غيبيات» علمية، أخذت مكان الغيبيات الدينية وقتئذ. وفى السنة التى ألفت فيها هذه الرسالة (١٩٠٩) نشرت مقالا فى «المقتطف» بعنوان «نيتشه وابن الانسان» وفى «الهلال» مقالا عن الاشتراكية التى أسميتها وقتئذ «الاجتماعية»؛ وهذا الاسم الثانى أقرب إلى الكلمة الأوربية من كلمتنا الشائعة الآن «الاشتراكية». وألفت رسالة فى هذه الموضوعات بعثت بها إلى مطبعة المقتطف كى تطبع. فردتها إلى المطبعة مع نحو ثمانى صفحات مجموعة. وكنت فى لندن، واعتذرت عن التوقف عن الطبع لأن القانون فى مصر يعاقب على نشر هذه الآراء، ونزلت عن أجر الطبع للصفحات الثمانى.

وقد كان هربرت سبنسر يقول إنه يستطيع أن يعرف المستوى الذهنى لأى إنسان بعد مدة قصيرة من التحدث معه. وهو يعنى بهذا أن لكل منا كلمات أو عبارات تتكرر أو يلتفت إليها الذهن كثيراً، وهى تدل على اهتمامات المتكلم أى تدل على ثقافته مادة واتجاهاً. وحين أرجع إلى نفسى أبحث عن الكلمات التى تتكرر فى مؤلفاتى ومقالاتى أجد أن أكثرها تكراراً: التطور، العالمية، حرية المرأة، العلوم، الحضارة الصناعية، الرجعية، المستقبل أى إنها كلمات تدعو إلى تغييرنا.

وأجد أن تفكيرى فى السياسة والثقافة كان على الدوام يسارياً، وفى الأغلب ارتياديا. ومما يلاحظ أن جميع الكتاب فى مصر بدأوا حياتهم الأدبية مذهبيين ارتياديين، ثم انتهى كثير منهم إلى ملاذ التقاليد يدعون إلى الفعل الماضى بدلا من اقتحام المستقبل. كما أنى أجد أن لى استعراضاً ديمقراطياً فى جميع ما أكتب يحملنى على مكافحة الظلمات التى لا تزال حية فى الشرق العربى: فى الاجتماع

والاقتصاد والعقائد . ولذلك لم يتغير موقفى من حيث إنى كاتب مذهبى يسارى أكافح الرجعيين الذين يجدون الحكمة خلفنا لا أمامنا ، كما أكافح أيضاً الإقطاعيين الذين يعارضون الاتجاهات الديمقراطية فى الأمم العربية .

وقد كانت حياتى الصحفية فى مصر ثقافية إلى أبعد حد . فقد أخرجت « المستقبل » فى ١٩١٤ وجعلته للكفاح الفكرى ، ولم ألتفت فيه إلى السياسة ، وأخرجت ١٦ عدداً ، وكان شبلى شميل من محرريه ومؤيديه . ثم اشتغلت بالهلال ثم بالبلاغ . وفى هذه الجريدة الأخيرة اشتبكت بالسياسة . ولكن همى الأول واهتمامى الأكبر كانا بالصفحة الأدبية . وهناك ثلاثة كتب هى « نظرية التطور وأصل الإنسان » و « مصر أصل الحضارة » و « التجديد فى الأدب الانجليزى الحديث » نشرتها كلها فصولا متتابعة فى «البلاغ» قبل أن تجمع فى كتب . ووجدت من عبد القادر حمزة ليس الصدر الرحب فقط بل التشجيع أيضاً على أن أمضى فى هذه البحوث .

أما «الهلال» فقد حررته من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٩ وكان من شروط عملى فيه أن أؤلف كل عام لقرائه كتابا جديداً يقوم مقام العطلة حين كان ينقطع شهرين . وكان بعض هذه الكتب للتسلية مثل « أشهر قصص الحب التاريخية » وكنت أؤديها على سبيل الواجب الحرفى . ولم تكن تكلفنى مجهوداً . ولكن كان بعضها الآخر يحملنى على البحث والدراسة ؛ فكنت أؤلف وأنا أتعلم ، مثل « حرية الفكر وتاريخ أبطالها » و « العقل الباطن » . والحق أن هذه المؤلفات التى ألفتها وأنا بالهلال ثم بالبلاغ كان كل منها بمثابة المدرسة التى علمتنى وأمدتنى بالغذاء الذهنى سنوات . بل حتى المقالات التى كنت أنشرها فى «الهلال» و «البلاغ» وجدت من الناشرين اهتماما ، فطبع بعض منها مع تنوع موضوعاتها باسم « مختارات سلامة موسى » و « اليوم والغد » و « فى الحياة والأدب » .

وقد سعدت بهذه المؤلفات على قلة بل تفاهة ما كسبت منها ماليًّا . وذلك أنى كسبت تربيتى ، كما كسبت هذا التغير الذى وجدته فيمن قرأوها ، وهو تغير كان أحياناً يصل إلى التطور والانقلاب ، وفيما بين ١٩٢٣ و ١٩٣٠ أثير غبار فى القاهرة بشأن التجديد فى الأدب ، وكان كل أديب يفهم من معنى هذا التجديد غير ما يفهمه الآخرون ، كل تبعاً لمزاجه واتجاهه وثقافته . وأستطيع أن أعين الاتجاهات التجديدية لتلك المناقشات الحامية كما أذكرها الآن فيما يلى :

١ — أن يكون لنا أدب مصرى عصرى لا يرتكن إلى الأدب العربى القديم .
٢ — أن يكون لنا أسلوب عصرى فى التعبير لا يمت إلى الجاحظ أو غيره ، مع مداعبة مستحيية للغة العامية . . . وهى مداعبة لم تثمر .
٣ — أن نأخذ بالأوزان والقيم الأوربيـة فى النقد الأدبى دون أوزان الناقدين القدماء وقيمهم كالجرجانى أو ابن الاثير أو ابن رشيق .
٤ — أن نجعل الأدب يتصل بالمجتمع ويعالج شؤونه ويندغم فى مشكلاته .
٥ — أن نوجد القصة والدرامة المصريتين .
٦ — أن نجعل الأدب إنسانى الغاية عالمى المشكلات .

والمؤلف بالمقارنة إلى الصحفى يعدُّ ناسكا . فإن المؤلف ينزوى فى غرفتـه باحثاً منقباً ، ولـكن الصحفى يخرج ويختلط بالمجتمع . ومع أن أكثر مجهودى فى الصحافة كان ثقافيًّا فى بحث العلوم والآداب فإنى قد مسست السياسة أيضاً ، وأحيانا اقتحمت غبارها حتى عصفت بى فى كثير من الأوقات . ولـكن أعظم ما يعزينى أن ما عصف بى كان أيضا يعصف بالأمة ، وأنى فى كفاحى الصحفى كنت أكافح للديمقراطية التى حاول المستبدون أن يحرمونا منها .

وأول اختبارى للصحافة كان فى «اللواء» فى ١٩٠٩ ؛ فقد قضيت فيه نحو أربعة أشهر مع فرح أنطون ، وكان يرأسنا رجل مهذب كان يدعى عثمان صبرى وكان صهر مصطفى كامل ، وكان قد تولى الرياسة بعد المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش الذى كان قد أغضب الأقباط بكلمات نابية . وكنا نكتب فى المطالبة بالجلاء ، ولا مفاوضة إلا بعد الجلاء . وهذه عبارة كان يستنكرها بعض الساسة فى مصر ؛ أما الآن فلا تستنكر ، وقد عمل بها الهنود حين أصروا مدة الحرب الـكبرى الثانية على شعار « اتركوا الهنـد » . وقد بقى فرح طيلة عملى معه باللواء وهو يظن أنى مسلم ، لاشتباه اسمى ، ولأنه لم يكن فى كل ما أكتب مايدل على وجهة خاصة . أما عثمان صبرى فكان يعرف أنى قبطى ، وكان كثيراً ما يذكر مقالات الشيخ عبد العزيز جاويش بالاستنكار أمامى ويتفادى من نشر أى مقال يوهم الشقاق بين المسلمين والأقباط . وقد كسبت من «اللواء» مرانة صحفية حسنة ، وكنت أكتب الخبر والمقال فى السياسة الداخلية والسياسة الخارجية . ولم يكن للمخبر فى تلك الأيام قيمة كبيرة . وكانت الجرائد «مقاليـة» أكثر مما كانت

خبرية . وذلك لأن الكفاح من أجل الاستقلال كان يستغرق كل اهتمامها تقريباً ، فكان جميع كتّاب الجريدة محررين .

ولما تركت «اللواء» وعدت إلى أوربا بقيت الصحافة خيالا ساحرا فى ذهنى . ورجعت إلى مصر واستطعت فى ١٩١٤ أن أحقق هذا الخيال بأن أصدرت مجلة «المستقبل» الأسبوعية . ولكن لم أصل إلى العدد الرابع عشر حتى كانت الحرب الكبرى الأولى قد شبت ، وارتفع سعر الورق نحو عشرة أضعاف سعره السابق ، وكان لابد أن أعطلها ، ولكن التعطيل جاءنى بطريق آخر . ففى ذات يوم وأنا افكر فى مشكلة الورق طلبتنى إدارة المطبوعات . فقصدت إليها غير عالمٍ بما يحدث ، وكانت الإشاعات كثيرة بشأن تعطيل المجلات والجرائد . وهناك قعدت أمام أحد الموظفين السوريين الذى حيانى وطلب لى القهوة ، وجعل يلاطفنى بكلمات عذبة ، ويسألنى عن المجلة وهل هى رابحة أم أنى أخسر فيها . ثم بعث فى طلب رجل انجليزى . جاء وقعد هذا قبالتى يستمع دون أن يتكلم . ثم شرح لى هذا الموظف حرج الموقف وضرورة وقف (أى تعطيل) بعض المجلات . ومع أنى لم أكن أبالى التعطيل ، كما قلت ، فانى وجدت فتنة سيكلوجية فى متابعة البحث والمناقشة وخاصة أمام هذا الإنجليزى ، فأبديت أنى قادر على إصدار « المستقبل » مهما كانت الصعوبات . فتلاحظ الاثنان وأنا مفتون بالموقف . وأصررت على أنى سأصدرها إلى آخر الحرب ، وأنى سأدعو فيها إلى الاشتراكية . وعاد الموظف السورى يخاطبنى فى ملاطفة مسرفة ويقول إنى أستاذ وعاقل . . . الخ . وأصررت أنا على العناد .

وأخيراً صرح ، فى غير ملاطفة ، بأن إدارة المطبوعات تستطيع التعطيل ، وأن المناوئين للحكم فى الظروف الحاضرة الشاذة يمكن نفيهم أو اعتقالهم . وكان هذا ما أردت أن أسمعه ، فهضت وقلت إنى سأعطل المجلة ، وخرجت .

وأرسلت إلى مىّ عقب التعطيل خطاباً تطلب منى أن أحرر «المحروسة» وكانت جريدة يومية قليلة الانتشار يصدرها والدها ، فقبلت ، وبقيت أحررها جملة أشهر سئمت بعدها الكتابة مع المراقبة الصارمة التى كانت تفرضها إدارة المطبوعات على الصحف . ولم يكن يخفف من هذا السأم سوى زيارت مىّ ومؤانستها لنا من وقت لآخر ؛ فقد كانت حلاوتها تمتزج بظرف ورقة .

وبقيت طيلة الحرب الكبرى الأولى وأنا معطل . وقد قضيت معظم سنى

هذه الحرب فى الريف فى عزبتنا بالقرب من الزقازيق . وكانت تلك الأيام بمثابة الحضانة . فقد أكببت على القراءة الجدية فى الآداب والعلوم واستوعبت منها كثيراً . وكنت من وقت لآخر أقصد إلى مأمور المركز فى الزقازيق كى أرجوه فى الإفراج عن أحد الذين قبض عليهم من الفلاحين . وكانت الحكومة تنفذ شرطتها إلى الأسواق الريفية العامة فتقبض على من تستطيع من هؤلاء المساكين وتربطهم بالحبال الغليظة كما لو كانوا أسرى حرب ، ثم يبعثهم الإنجليز إلى فلسطين وكانوا يموتون بالمئات والألوف . ولم أكن أنجح فى تخليصهم إلا بالرشوة .

وسئمت الركود الريفى ، فاشتغلت بالتعليم فترة . ثم هبت الثورة فى ١٩١٩ ورأيت أن أقصد إلى القاهرة حتى أكون على صلة بالحوادث ، وحتى أجد منفذاً جديداً إلى الصحافة . وتحقق لى ذلك ؛ فإنى بعد أن اشتغلت بالتعليم فى مدرسة التوفيق قليلا اشتركت فى تحرير «الهلال» ، واشتركت أيضاً فى تحرير «البلاغ» .

وانغمست فى السياسة مع المرحوم عبد القادر حمزة ، وكنت أزور معه سعداً . وكان عبد القادر حمزة من الكتّاب الأفذاذ إذا نشب فى موضوع لم يترك الجدل فيه حتى يستقصيه ويخرج منه منتصراً . وكان نزيها فى حكمه حتى حين كان يختلف . فإنه بعد أن ترك الوفد فى ١٩٣١ بقى على صداقته السابقة مع كثير من الوفديين .

وأصدرت « المجلة الجديدة » فى أواخر ١٩٢٩ . وأصدرت « المصرى » فى السنة التالية . وكانت الأولى شهرية والثانى أسبوعيا . وكانت الدعوة فى كليهما تحريرية فى الثقافة والسياسة . وعصفت بنا فى ١٩٣٠ عاصفة سياسية فى وزارة إسماعيل صدقى باشا ، فألغى الدستور واستبدل به آخر بعيداً عن الديمقراطية ، وألغيت مجلتاى . وكان قد شُرط فى قانون النشر الجديد أن من يطلب امتيازاً لجريدة أو مجلة جديدة يجب أن يؤدى تأميناً قدره ١٥٠ جنيها . فأديت التأمين نقداً . ولكنه رفض . وبعد ثلاث سنوات أى فى ١٩٣٤ جاءت وزارة عبد الفتاح يحيى باشا ، فاستطعت أن أعيد إصدار «المجلة الجديدة» بضمان عامل فى المطبعة عندى . . . وهذه هى حالنا فى مصر : فى وزارة ما يرفض التأمين النقدى ، وفى وزارة أخرى يقبل ضمان العامل الذى لا يملك شيئاً .

وفى بداية الحرب الكبرى الثانية أنشئت وزارة الشؤون الاجتماعية ، فاستدعتنى كى أحرر مجلتها . وقبلت لأنى وجدت أن الفرصة تتيح لى الإرشاد

العصرى والتوجيه الاجتماعى . وبقيت أكتب فى هذه المجلة نحو سنتين . وكانت مقالاتى يوقع عليها بامضائى أو تنشر بلا إمضاء . فإذا راقت المشرفين على المجلة وُضع لها إمضاء غيرى ولو لم تكن له علاقة بالوزارة . وقد كان هـذا العمل مثاراً للسخرية أحيانا وللأسف أحيانا .

وكنت أتناول عشرين جنيها راتباً شهريا على التحرير دون أى اشتراط على القدر الذى أكتب أو على مواظبة الحضور . فكان يمضى الشهر دون أن أحضر للوزارة ، وكنت أكتب أى قدر شئت من الصفحات . ولـكن الوزارة ضنت علىّ بهذه الحرية مع صغر الراتب . فألغته وعينت أربعين قرشاً للصفحة الواحدة . ورأيت آخر الشهر بعد هذا النظام أن كل ماحصلت عليه هو جنيهان فقط . فتركت التحرير .

وكنت طيلة عملى بالوزارة أصدر « المجلة الجديدة » أيضاً . وبقيت على ذلك إلى ١٩٤٢ حين سلمتها لبعض الإخوان الأصدقاء كى يقوموا بنشرها وكى أختص أنا فى التحرير السياسى . ولـكنهم نزعوا نزعة ديمقراطية مسرفة لم ترض الاستعمار ، فألغيت فى تلك السنة بأمر عسكرى .

وفى السنة التالية اشتريت امتياز جريدة يومية . وقبلت إدارة المطبوعات نقل الامتياز الذى أثبت فيه أنها « يومية » وذكر فيه الضمان بأنه ٣٠٠ جنيه أى ضمان جريدة يومية . وبعد أن قبل كل هذا وبعد أن استعددت لإصدار هذه الجريدة اليومية أقيلت وزارة الوفد . وفى اليوم التالى للإقالة فى أكتوبر من ١٩٤٤ أبلغتنى إدارة المطبوعات أن الجريدة شهرية وأنه لايجوز لى أن أصدرها يومية .

وعندما أقارن بين صحافة الجيل الماضى (من ١٩٠٠ إلى ١٩٢٠) وصحافة الجيل الحاضر ، أجد أننا قد تقدمنا وتأخرنا . أجل ! تقدمنا فى فن الطبع والإخراج تقدما عظيما جدًّا ، فإن جرائدنا ومجلاتنا تدل على رقى فنى يضارع أعلى المستويات الصحفية فى أوربا . ولـكننا من حيث التحرير تأخرنا ؛ إذ ليس عندنا الآن من المحررين من يضارعون مصطفى كامل أو على يوسف أو لطفى السيد . وقد مات عبد القادر حمزة وهو آخر هذا الجيل المنقرض .

ولـكن هناك مع ذلك علامة حسنة فى الصحافة الحديثة ، هى عنايتها الـكبيرة بالأخبار الخارجية ؛ فإن هذه العناية ، التى كان مبعثها الحربين الأخيرتين ،

تنير القراء وتربيهم على النظر العالمى وبحث سياستنا من الزاوية السياسية العالمية الكبرى . وهذا حسن .

وقد دلتنى اختباراتى فى السياسة والثقافة أن مقالين فى السياسة أحياناً يعودان بمثل الربح المالى الذى يعود من تأليف كتاب كامل قد احتاج إلى دراسة السنين . ولذلك فان التأليف فى مصر تضحية كبيرة لا يرضاها إلا المهوَّسون بالثقافة . ولذلك أيضاً أصبح كثير من الأدباء الذين افتتحوا حياتهم بالتأليف صحفيين .

وذات مساء فى ١٢ يوليه من هذا العام ١٩٤٦ كنت نائماً على الأسفلت فى غرفة مظلمة فى سجن الأزبكية مع نحو أربعين من المتهمين بالسرقة والضرب والقتل واحتياز المخدرات وغير ذلك . وكانت تهمتى أنى أفكر وأكتب عن الاشتراكية أو الشيوعية . وكانت خشونة الأسفلت تمنعنى من النوم وتؤلمنى فأرقت . وأخذت ذاكرتى تعرض فلماً حياتى الماضية ، فذكرت الحرية التى كنت أتمتع بها فى ١٩١٤ حين كنت أكتب مقالات فى « المستقبل » لو أن بعضها نشر هذه الأيام لقاد إلى السجن . وذكرت العناء الذى لقيته فى الدراسة والتأليف ، وعددت نحو عشرين كتاباً ألفتها لأبناء وطنى أخلصت فيها النية وبذلت المجهود كى أنير وأعلم ، وكى أسمو بالشباب إلى مثليات القرن العشرين وأخرجهم من ظلمات القرون الماضية . ثم تأملت حالى على الأسفلت الخشن ، وكيف أنى لم أجمع مالا ولم أحصل حتى على الكرامة التى يستحقها من يخدم ويخلص فى الخدمة . وكان إلى جنبى نصف رغيف هو عشائى الذى قررته لى الحكومة المصرية جزاء هذا العمر الذى قضيته فى خدمة مصر . وأخذت أفكر وأجدّ التفكير وعقلى يتضور من الألم ، إلى أن أصبح الصباح ودخل علينا رجل بقفة بها خبز ، فناولنى رغيفاً للفطور وضعته فوق نصف الرغيف الذى تناولته فى المساء السابق . وهكذا يفعل بنا الاستعمار والاستبداد المتحالفان .

سلامة موسى